

مقاربة أنثروبولوجية لمقبرة سيدي السنوسي بتلمسان: دراسة ميدانية

**An anthropological approach to the cemetery of Sidi Senoussi
in Tlemcen: field study**

د. لحسن رضوان¹ *

¹ جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم - الجزائر -

radouane772003@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/01/10 تاريخ القبول: 2022/03/19

ملخص :

يخفر المقال في عناصر تحليل مضامين الكتابة الشاهدية بمنطقة تلمسان ، حيث اعتمد الانتقال من المقاربة الأركيولوجية إلى المقاربة الأنثروبولوجية المبنية على المعاينة الميدانية عن طريق الملاحظة المباشرة والتصوير الفوتوغرافي والمقابلات مع الفاعلين الاجتماعيين الذين بمسهم الموضوع. وذلك من أجل فهم أعمق الكتابة الشاهدية في اللحظة الراهنة باعتبارها مدونة ثقافية وشكل من أشكال التعبير التي لها سياقها الخاص ورهاناتها الخاصة. فهي أرشيف "مَهْوَى" تسجل اللحظة الراهنة وتقف عند المحلي وتكشف عن كل من البعدين العميق والسطحي في بنية المجتمع المرتبطة بالتصورات والممارسات الخاصة بحدث الموت لي طرح مجموعة تساؤلات أولية: ماذا يكتب الناس على شواهد قبورهم؟ وماهي دواعي هذه الكتابة؟ ضمن إشكالية محورية مفادها: ماهي مضامين الكتابة الشاهدية الآن بتلمسان وما هي رهاناتها اليوم؟

الكلمات المفتاحية : الأنثروبولوجيا الجنائزية - الكتابة الشاهدية - المقدس والمدنس - القبر - المقبرة .

Abstract:

The article deepens the elements of content analysis of witness writing in the region of Tlemcen, where the shift from an archaeological approach to an anthropological approach based on field examination through direct observation, photography, and interviews with social actors touching on the subject has been This is in order to better understand witness writing in the present moment as a cultural code and form of expression that has its own

* المؤلف المرسل: د. لحسن رضوان، الايميل: radouane772003yaho.fr

context and issues. It is a "disaggregated" archive that records the present moment, is situated locally, and reveals both the deep and superficial dimensions of the structure of society associated with perceptions and practices of the death event, to raise a set of primary questions: What do people write on their tombstones? What are the reasons for this writing? Within a central problematic: what are the implications of the writing of the witness today in Tlemcen, and what are its stakes today?

key words: Funerary anthropology - The sacred and the profane – Tomb - cemetery

تمهيد

لا يزال فضاء المقبرة بالعموم خصبا للدراسات الأنثروبولوجية، حيث لم تنل الكثير من الاهتمام وبالأخص في علاقتها بطقوس المرور والممارسات الجنائزية المتنوعة في القطر الجزائري، مما يستدعي توسيع الرؤية وتعميق المقاربة من أجل الكشف عن طبيعة المعاني التي يمنحنا إياها الفاعلين في إطار وضعياتهم المختلفة مكانا وزمانا، ويقدم لنا الخطاب والممارسات والتمثيلات مادة تعكس رؤية الجزائري للموت والحياة .

يقدم هذا العمل نفسه كتجربة بحثية يتمازج فيها التطبيقي والنظري ووتتنوع فيه الأدوات المنهجية المستعملة من "مقابلات فردية وجماعية" وتقنية "الملاحظة" ونخص بالذكر استعمال "ملاحظة السميكة" و"تحليل المضمون" كإطار نظري ومنهجي واستعمال تقنية "التصوير الفتوغرافي" حيث تمكنا من جمع أكثر 2000 صورة وتفرغها وتحليلها ضمن سياقها الاجتماعي والثقافي .

لا يزال المجتمع الجزائري يتلقى تصورات الدينية ومعتقداته كما في الماضي عن طريق الانطباعات، الإحساسات، والتقليد المتوارث، أكثر ما يتلقاها عن طريق المصادر الدينية المكتوبة. وعلى أساس ذلك نسعى لفهم ظاهرة الكتابة الشاهدية الآن بتلمسان من الزاوية الأنثروبولوجية، والتي تحتاج إلى تعريف إجرائي نابع من الميدان:

تعد الكتابة على شواهد القبور ظاهرة إجتماعية وثقافية وشكل من أشكال التعبير داخل فضاء المقبرة، وهي تندرج ضمن سيرورة الطقس الجنائزي، أي ضمن الممارسة الدينية العادية

بتعبير فاني كولونا تعكس علاقة الأحياء بالأموات وبتصوراتهم اتجاه العالم الآخر من جهة وتصريف حدث الموت والتخفيف من وطئته من جهة أخرى.

من مميزات المقاربة الأنثروبولوجية أنها تستبعد الفصل بين دين شعبي شفاهي وآخر أرثوذكسي كتابي (Colona fanny.1995.pp8-9) وبداية كان من الضروري فهم تمثيلات الفاعلين لحدث الموت باعتباره أكثر الظواهر "ميتافيزيقية" وباعتباره يثير في نفس الإنسان الخوف، الهلع والكثير من التساؤلات. وتعمل كل الثقافات والأديان المختلفة على احتواء هذا الخوف بمجموعة من الطقوس، لإفراغ التوترات وتصريف الانفعالات الناتجة عنه (عبد الغني منديب، 2006 ص157)، لأجل تهيئة الإنسان لتحمل القلق الناجم عن المجهول.

إن الموت لحظة حاسمة، يواجه الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته (Levinas E, 1971, p258. ولهذا، فإن المشكلة التي يثيرها هي مشكلة الصراع بين إرادة البقاء وحتمية الفناء، فالإنسان كائن معد للموت فهو "ذا القبر" (مرتضى الزبيدي، 32 ص478). والموت يعبر عن نهاية الجسد، فمن الناحية اللغوية نجد للموت في المعجم الجاهلي عددا من المرادفات منها: الموت، المنيّة، الردى، الهلاك، المصرع، الحتف، الحمام، الحمة، المنون، البلى، الشُّوب (Abdesslem A, 1977, p197). أما تعريف الموت في المقدس الإسلامي، وخصوصا في "الصحيحين" فقد ورد بمعنى، إلحاق بالرسول، لقاء الله، إجابة الله، الرجوع إلى الله (النوي، 18، 2930، 1929، م9). والملاحظ هنا أن المقدس الاسلامي ذاته يتحاشى تسمية الموت باسمه (الموت) وهذه التعبيرات و الأشكال واستعمالاتها المتعددة داخل هذه المدونة، نجد لها حضورا وتنوعا مما يوحي بتمثيلات غير منسجمة للفاعلين تنعكس في الكتابة الشاهدية.

وتبعاً لذلك فالإنسان كي يتقبل موته وموت الآخرين وضعت شبكة من التفسيرات الدينية أو العقلانية، والتي تجعل المسلم يرى في الموت أمراً معقولاً لا عبث فيه. إن الله المعطي لا بد أن يأخذ (لله ما أعطى ولله ما أخذ، والباسط لا بد أن يقبض والمحيي لا بد أن يميت، الموت رجوع، والموت نداء يُلبى والموت إلحاق بالرسول (ص). وأجبرت فكرة الحياة الأخرى الإنسان

على "ابتكار" عبادة الموتى، طقوس الدفن وكل أشكال الطقوس الجنائزية الأخرى، حيث تعرف كل حضارة وتحدد بطريقتها في دفن موتاهما وبكيفية عيشها لحادث الموت وتصوراتها له (Khatibi, Abdelkebir, 2002, p197). حيث "إن الدفن سلوك ثقافي وشاهد على تطور فكرة الموت في أذهان الناس" (برونفسكسي، د. 1981، ص 26). إن هذه الملاحظة تعكس الممارسات الجنائزية التي يمكن أن تنجم عن الترحال أو الاستقرار، فهنا فقط يمكن أن نقول برهان الذاكرة واشتغالها لتوفر لذاتها ماض وتخلق مؤسسات تنعش الذاكرة -المقبرة- وتسهم أيضا في إنتاج النسيان عبر طقوس وممارسات أخرى. وبهذا يتجلى "جهد الثقافة التي ينصب دائما على تحويل ما هو طبيعي إلى منتج ثقافي وحضاري حيث أن الشاهد المحمّل بالمعاني والدلالات كان قبل ذلك حجرا بلا معنى. ويمكن القول أن اللحظة الراهنة حسب تركي علي ربيعو "تسجل انتصارا ثقافيا وحضاريا على ظاهرة الموت" (تركي علي ربيعو، 1992، ص 39). ونحن نفترض أن الكتابة في بعدها التذكاري والتسجيلي تُسهم في هذا الانتصار.

1- البعد الذاكري للمقبرة .

تعتبر الكتابة على شواهد القبور ظاهرة سوسيوأنثروبولوجية وشكل من أشكال "الكشف عن موقف المجتمع في طريقة الحياة وإرادة تقديم الذات المرغوب فيها" (زيغور علي، 1991، ص 83). ولذلك حاولنا صياغة سؤال الانطلاق من خلال مجموعة من الدراسات السابقة التي اشتغلت على الظاهرة نفسها ولكن بتبني المقاربة الأنثروبولوجية، وعلى سبيل المثال الدراسة القيمة حول هذا الموضوع "الكتابة على شواهد القبور الإسلامية مع معجم الألفاظ والوظائف الإسلامية" للباحث جمال خير الله (جمال خير الله، 1980، ص 448) الذي يناقش مسألة شواهد القبور الإسلامية وفق مقاربتين مختلفتين ولكن متكاملتين ومتمازجتين، الأولى أركيولوجية والثانية تاريخية. قامت المقاربة الأولى بوصف دقيق للشواهد عبر أزمنة مختلفة، مركزة على مجالات محددة مثل القاهرة في العهد العثماني ومدينة الرشيد في العهد العثماني واسطنبول في العهد التركي، وكذلك إريتريا في العصر الأموي. أما المقاربة التاريخية، فقامت باستدعاء

وتحليل وتفسير النصوص بتبيين طبيعتها ووظائفها التي تعكس حالة المجتمع الثقافية، الاجتماعية، الاقتصادية وحتى السياسية. كما تعكس كُثًا هائلا من أسماء الأعيان و الأماكن والنخب. وهناك عمل آخر مهم لـ صالح بن قربة والموسوم بـ "أهمية الكتابة الشاهدية في تاريخ المغرب الإسلامي وحضارته"، حيث حدد فيه الباحث مفهوم الكتابة الشاهدية وعناصرها الأساسية. ووقف على الفوائد التي تقدمها النقوش الكتابية للبحث العلمي. كما حاول الكشف على أجواء الحياة الدينية والروحية من خلال مظاهر الصراع الفكري والمذهبي. وتضمن المقال معلومات مهمة حول مضامين الكتابة الخاصة بأشهر رجال التصوف، وأشهر القبائل والأشخاص، وأشهر السلاطين والأنساب والأمكنة. وهناك أعمال أخرى مهمة مثل أعمال معزوز عبد الحق ونيكولا فاتان وريمون ليميو... ولكن مجمل هذه البحوث أجريت وفق مقارنة أركيولوجية أو تاريخية، ولذلك سعينا لاستثمارها باتجاه المقارنة الأنثروبولوجية التي ترصد الأشكال الثقافية التي تعني حسب "ك. غيرتز" بناء واستعمال الأشكال الرمزية. ولفك معاني هذه الرموز، نعتمد الوصف الكثيف للأفعال، برصد وجهة نظر الفاعلين ضمن السياقات المحلية التي تندرج فيها. والمفارقة الأنثروبولوجية تتمحور حول سؤال إشكالي في مضامين الكتابة الشاهدية بمنطقة تلمسان الآن؟ وما هي رهاناتها الخاصة؟ وما هو المعنى الذي نمنحه لهذه الكتابة؟ وما طبيعة التمثيلات التي يحملها الفاعلون تجاه ممارساتهم الكتابية؟ ومن أجل ذلك اقترحنا ثلاث لحظات للتفكير هي: لحظة إبستمولوجية، لحظة وصفية ولحظة تحليلية تأويلية.

أ- الكتابة الشاهدية بين المقدس والمدنس

إن المعاينة الميدانية للمقابر بمدينة تلمسان وضواحيها -ومن خلال الملاحظة المباشرة التي وصلت إلى درجة التشبع والمقابلات مع الفاعلين من صناع شواهد القبور والأهل وأقارب بعض المتوفين- تفيد أنه لا يوجد تقريبا قبر بدون كتابة. ويقول أحد المستجوبين وهو من صانع شواهد: "الكتابة على الروسيات ولأث ضرورة حتى يَتَعَرَّفُوا الناس على مآليهم، الموت كثرت وكان منعلمهمش بالكتابة مانقدروش نعقلو عليهم ومانقدروش نتصورو ليوم قبر بلا شاهد لحاظ حاجة طايحة لما يكتبولوش معناها ملايهم سمحو فيه" (مقابلة فردية) . وهذه العبارة

تفيد أن الكتابة ضرورية من حيث أنها علامة تسهل الوصول إلى القبر. كما أن كثرت الوفيات تجعل من الكتابة حل يحمي من النسيان، إضافة إلى ذلك لا يمكن تصور قبر بدون كتابة، لأن عدم الكتابة يتسبب في إلحاق الإهانة بأهل المتوفى لتخليهم عن فقيدهم. والشهادة الثانية كانت لمستجوب يبلغ عمره 40 سنة فقد أمه سنة 2010م (مقابلة فردية). وكان يقوم بزيارة قبرها، وقد صرّح لنا بأنه لا يمكن أن يقدم أي شيء لها سوى "تدعيها باش رب يرحمها وديرها روسي باش الناس يدعو لها بالرحمة والمغفرة". إن هذا الإصرار على استعمال الشواهد والكتابة عليها، أصبح ظاهرة تستحق الاهتمام، الفهم والتفسير. ولكن المثير للاهتمام أكثر هو النصوص الدينية المانعة للكتابة والبناء على القبور. هذه الرؤى تسمح بإظهار التعارض أو اللاتطابق والالتوافق بين البني الاجتماعية والبني الذهنية. (يبار بورديوج.فاكونت، 1997، ص11)

يتجلى برادوكس الكتابة الشاهدية والنص المقدس عبر ما اعتمدته "الإيديولوجيا الوهابية" في الإفتاء بجرمة البناء على القبور ووجوب هدم المشاهد المقامة عليها. من ذلك الروايات التي نهي فيها الرسول (ص) "أن يخصّص القبر وأن يقعد عليه، وأن يُبنى عليه". وهذا الحديث قد روي عن جابر بأسانيد ومتون مختلفة (صحيح مسلم، 2/62). وحسب المصادر الفقهية والتاريخية، فإن مسألة الكتابة والبناء لم تكن مطروحة بشدة حتى جاء ابن تيمية، فلمذاهب الأربعة تركت مساحة مرنة يجوز فيها الكتابة على القبر بشرط أن يكون الغرض من وراء ذلك "تعليم القبر" فقط. وما جاء عن الخليل أنه قال: {وجاز للتمييز} قال شراحه: "أي البناء أو التحويز كما يجوز وضع خشبة أو حجر عليه بلا نقش وإلا كره إلا أن يكون النقش بقرآن فتظهر الحرمة خوف الامتهان". وقال الخطاب: وقال ابن رشد: "كره مالك البناء على القبر وأن يجعل البلاطة المكتوبة، لأن ذلك من البدع التي أحدثها أهل الطول من إرادة الفخر والمباهاة والسمعة، وذلك ما لا اختلاف في كراهته وقال ابن العربي في "العارضة": "وأما الكتابة عليها فأمر قد عمّ الأرض، وإن كان النهي قد ورد عنه، ولكنه لما لم يكن من طريق صحيح تسامح الناس فيه، وليس له فائدة إلا التعليم للقبر لئلا يندثر" (الصادق عبد الرحمن الغرياني، ج1، ص584). أما رأي الشافعية، فما جاء عن النووي في "المنهاج" قوله: "ويكره

تخصيص القبر والبناء والكتابة عليه". وهذا ما قاله في الروضة وعلق الرملي في النهاية، فقال: "سواء كان اسم صاحبه أم لا في لوح عند رأسه أم في غيره كما في المجموع نعم يؤخذ من قولهم إنه يستحب وضع ما يعرف به القبور لأنه لو احتاج إلى كتابة اسم الميت لمعرفته للزيارة كان مستحبا بقدر الحاجة" (عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري، 2003 ص 535). وفي رأي الحنابلة ممثلا بابن قدامة قوله في "المغني": "ويكره البناء على القبر وتخصيصه والكتابة عليه". وقال المرداوي في "الإنصاف": "أما تخصيصه فمكروه بلا خلاف نعلمه وكذا الكتابة عليه وكذا تزويقه وتخليقه ونحوه وهو بدعة". ونقل الشيخ ابن عثيمين عن الشيخ ابن سعدي أنه قال: "المراد بالكتابة ما كانوا يفعلونه في الجاهلية من عبارات المدح والثناء لأن هذه هي التي يكون بها المحذور أما التي بقدر الإعلام فلا تكره. وجاء في مذهب الحنفية، أن ابن عابدين في حاشيته قال: "لأن النهي عنها - يقصد الكتابة على القبر - وإن صح فقد وجد الإجماع العملي بها، فقد أخرج الحاكم النهي عنها من طرق ثم قال: هذه الأسانيد صحيحة وليس العمل عليها فإن أئمة المسلمين من المشرق إلى المغرب مكتوب على قبورهم وهو عمل أخذ به الخلف عن السلف ويتقوى بما ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل حجرا فوضعه عند رأس عثمان بن مضعون وقال: أتعلم بما قبر أخي، وأدفن إليه من مات من أهلي".

ب- الكتابة الجنائزية بين الثبات والتغير .

البرادوكس الثاني فيتجلى في الكتابة الشاهدية والكتابة على الجريدة، حيث يمكن أن نلاحظ الفرق الواسع في التعبير عن حدث الموت في مدونتين مختلفتين الأول حجري ثابت صامد، طبيعي، مقاوم لكن لا يعبر عن الأحاسيس والمشاعر والآخر يومي وظرفي وورقي يحمل مضامين ثرية من حيث التعزية، الأربعينية، الذكرى والترحم. ويمكن تبين ذلك:

1- الكتابة على شاهد القبر

أ - الوجه الأول:

هذا قبر عبد مومن أحمد ولد رابع ازداد في

1955-04-20 وتوفي 2009-05-30

ب- الوجه الثاني:

دعاء

يا وقفا على قبرنا ادع لنا بالرحمة والمغفرة

ذكرى وترحم

اللهم يا رحمن يا رحيم يا واسع المغفرة اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله وأغسله بماء الثلج ونقه من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس.

2- الكتابة الجنائزية في الجرائد اليومية

في مثل هذا اليوم 08 ديسمبر 2011 تكون قد مرت سنة كاملة على فراق الابن العزيز المسمى قرين خالد عن عمر يناهز 36 عاما تاركا وراءه فراغا لا يعوضه سوى الإيمان بقضاء الله وقدره وإثر هذا المصاب الجلل تتقد كل عائلة قرين بمن فيهم الوالدة والوالد عمر والزوجة وسيلة والبنات خلود، كذلك الإخوة سمير وغاني بديار الغربية والأخوات أمال سلوى صفية وأحلام وكل أصدقائه بالدعاء له والتضرع إلى المولى عز وجل أن يسكنه فسيح جناته وأن يجعل قبره روضة من رياض الجنة.

إن لله و إليه راجعون. (جريدة الجمهورية 2011. العدد 3497)

ذكرى وترحم من خلال نموذج الجريدة

اللهم يا رحمن يا رحيم يا واسع المغفرة اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله وأغسله بماء الثلج ونقه من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس.

يرى أحد المبحوثين أن الكتابة على الجرائد أكثر تعبيرا وإحساسا، لأن الجريدة في الأصل فضاء للمقروئية، وجدت للتعبير عن آراء الناس وهمومهم وأحزانهم، فالجريدة وجدت لتتقاسم الخبر الحسن والسيئ منه، كالوفاء، الذكرى والأربعينية وهي إخبار وتواصل وتذكير للآخرين وخصوصا الأجانب الذين يعرفون الفقيده. ومن الأمثلة عن ذلك تصريح أحد المبحوثين، حيث قال: "كان أبي جنديا يعرفه الكثير من الناس في عدة ولايات، وعندما نشرنا في جريدة الخير ذكره

في 2010م اتصل بنا الكثير ليخبرونا عن تضامنهم معنا. ومنهم من كان لا يعلم حتى وفاته، فعلم عن طرق الجريدة

ج- البعد الزمني للكتابة الجنائزية

البرادوكس الثالث يتعلق الكتابة الشاهدية التاريخية والكتابة الشاهدية الآنية، حيث إذا رجعنا إلى التاريخ تبين لنا أن الكتابة الشاهدية كانت كثيفة، متنوعة وتحمل مضامين غنية، ثم تراجعت كيفاً وكمّاً. والسؤال المهم هنا: لماذا هذا التراجع في الكتابة من حيث النشر، الشعر، الآيات والأحاديث، الحكم والمواعظ، الإحساس والمشاعر؟
المضامين التالية تقارن بين فترتين تاريخيتين من حيث الكتابة

أ- الكتابة الشاهدية التاريخية

هو الخلاق الباقي

لصاحب هذا القبر فادع وزر له

وفاتحة القرآن فاقراً مجله

فقد كان هذا الشخص مفرد وقته

شريفاً عفيف النفس قد فاق أصله

هو السيد الجد وأعني محمداً

لقد حج مبروراً وأحسن فعله

بثامن عشر من محرم شهرنا

بجمعبته وافي وقد حاز فضله

عليه من المولى سحاب رحمة

دوماً لقد حاكت من الغيب له

وأعطاه مولاه الكريم بفضله

نعيماً مقيماً قد أدام وصاله

فقلت إذا في موته حين أرخوا

على قبره وافته مراحة له سنة 1233. (جمال خير الدين، 1980، ص145)

الكتابة الشاهدية الآنية

1- الشاهد الأول:

هذا قبر المرحوم

بن عمري الطيب

ولد القندوز

ولد سنة 1914 توفي

19 ماي 1974

2- الشاهد الثاني:

من يعتصم بك

يا خير الوري شرفا الله

حافظه من كل منتقم (مقبرة سيدي سنوسي تلمسان)

د- الكتابة الجنائزية : العادي والاستثنائي

يطرح البرادوكس الرابع إشكالية الكتابة الشاهدية في أضرحة الأولياء، فمن خلال المعاينة الميدانية تم ملاحظة التعارض الحاصل بين القبور العادية وقبر الولي، حيث أن ضريح هذا الأخير لا يحمل أية كتابة. ويقول أحد المبحوثين أن "الولي ليس بحاجة إلينا لنُعرف به بل هو الذي يعرف بنا لأننا بنينا قبورنا حوله بل نتشاجر لنكون بجانبه وتحت بركته". "فهو نعمة إلهية"

MaxWeber, 1971, p25. كما أنه يمثل صفة استثنائية ويظهر مقدرة غير طبيعية،

بحيث يبدو وكأنه كائن سماوي، مثالي أو استثنائي، ولهذا السبب يجمع حوله أتباعا وأنصارا
MaxWeber, 1971, p222). إن الإنسان بحاجة إلى الولي كوسيط لشدة شعوره

بعجزه وقصور إمكانياته في مجابهة مصيره، حين تلم به النوائب أو يصاب في نفسه أو ذويه أو قوته، فيتخذ الولي حليفا ونصيرا كي يتوسط له لدى الله، فالولي هو ولي الله. ومن خلال التقرب منه تتحقق الحاجات، فتنتشر ظاهرة التعلق بالأولياء واللجوء إليهم لاستجلاب الخير

ودره الشر(صوفية السحيري بن حيتري، 2008، ص314). إضافة إلى ذلك يعتقد الكثير من الناس أن الولي يشفع لأربعين ممن يدفنون. ولهذا فإن مؤسسة الولي ضرورة اجتماعية وثقافية وحتى اقتصادية، فعدم الكتابة إنعاش للمخيل وتأثير للأسطوري والخراف، ما يجعل الخطاب مفتوحا على مصرعه لتنوع الروايات وتفاضلها، ما يرسى وظائف لمؤسسة الولي من الناحية الاجتماعية كأشكال التضامن والتراحم وحل النزاعات والعلاج والتبرك والدعاء للأحياء والأموات. والملفت للانتباه في مؤسسة الولي كثرة النساء مقارنة بالرجال .

إن الولي محفوظ في الذاكرة الجماعية المؤثرة بالمخيل أما شواهد القبور العادية، فهي تحمل الذاكرة الفردية قبل كل شيء وتُعرف بالمتوفى فقط، إذ تتضمن بطاقة تعريفية موجزة متكونة من اسم، لقب، تاريخ الازدياد وتاريخ الوفاة. وفي المقابل، فإن الخطاب المشكل عن الولي واسع، متنوع وأسطوري، ما يدفع الفاعلين للحفاظ على ذاكرة أوليائهم عبر الخطاب الشفهي وعبر الممارسات.

هـ - الكتابة الجنائزية والبعد الشفهي

ويتعلق البرادوكس الخامس بالممارسات الكتابية الشاهدية والممارسات الشفهية. وهنا نريد فهم مسار هذا الطقس في علاقته بالكتابة، أي الكشف عن الشفهي والممارس وغير المكتوب على الشاهد ولماذا هذا التعارض بينهما؟ ولذلك فإن عملية رصد المراسم الجنائزية من حيث الكثافة وقوة الكلمة عبر الصراخ، البكاء، الندب والنواح وغيرها وبرودة الكتابة من جهة أخرى يعبر عن فرضية أن طبيعة وأشكال الطقوس الجنائزية تقوم بتصريف حدث الموت ولذا لا نجد أشكال متنوعة وعميقة للكتابة الشاهدية الآن وهذا حسب التحقيق الميداني في تلمسان.

إن الطقس الجنائزي من وجهة نظر معظم الأنثروبولوجيين طقس مرور بامتياز (Georges.Balandier, 1980, p125). ويلاحظ أن الموت انتقال من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، والطقس الجنائزي لا يُعد فقط الموتى للمرور إلى العالم الآخر وإنما الأحياء كذلك، فأتثناء فترة الحداد يشكل الأحياء والأموات مجتمعا خالصا. والذي "يتأرجح بين عالم الأحياء وعالم الأموات، هذا المجتمع الذي يغادره الأحياء بعد انقضاء فترة

الحداد التي تطول أو تقصر حسب درجة قربهم بالميت "Arnold.van.Gennep,1969,p125". إن كل طارئ على الحياة في الحضارات ذات الأساس الديني باعث على القلق. وهذا الطارئ شبيه بالنجاسة التي تستدعي طقوسا تخفف من وطأتها. إن الموت يحدث تحولا في وضع الفرد، تترتب عنه أفعال وردود أفعال بين الديني والدنيوي، والتي يجب أن تنظم وتراقب حتى لا يلحق بالمجتمع الاضمحلال. ومن المفيد عرض قاعدة عامة مفادها "أنه لا يتم ترك الأشياء للمبادرة الفردية، بل يتم تسويتها جماعيا. فهناك ممارسات وطقوس يجب احترامها. وهذه الاستعمالات التي هي من صنع الجماعة تؤدي وظائف متعددة:

- أ- الوقاية من عدوى الموت والعدس الذي يصيب أيضا الوسط المباشر للميت.
- ب- إعادة تأكيد النظام الاجتماعي وإعادة تشكيل الجماعة بعد اختفاء أحد أعضائها.
- ج- تقديم مساعدة فردية لأقارب الميت، كي لا يقعوا تحت وطأة العزلة". (مناحيم روث .
(www.aslinnet.free.fr)

الطقوس الجنائزية تظل من التجارب الأكثر غنى بالمعاني المتعلقة ببنية المجموعات البشرية وطريقة اشتغالها. وعند مقارنة الممارسات الشفهية بالممارسات الكتابية، فإننا نلاحظ غياب مفردة الموت من تلك الأخيرة رغم أنها الحاضر الأكبر، ولكنها في الوقت نفسه، الغائب الأكبر. والملاحظ أيضا، أن ما يرثى به الميت شفها وعلى ألسن متعددة مثل الإمام، الندابة، النواحة وأهل الميت يكون مغيبا على الشاهد، ما يجعلنا نحس ببرودة المشاعر. ويمكن ملاحظة كيف يتعاون المجتمع المحلي عند حدوث الأزمات ويخلق استراتيجيات لتجاوز هذا الحدث الكبير، فالموت وإن كان حدثا تراجيديا، إلا أنه لا يعطل الرقابة.

إن أهل المتوفى مسؤولون أمام الجميع، فهم مطالبون بإبداء قدر كبير من الحزن. وربما كانت النائحات اللواتي يستأجرن للبكاء مجرد عناصر في استراتيجية يقصد من ورائها تحرير أهل المتوفى مؤقتا من مسؤولياتهم الانفعالية للتفرغ لمسؤوليات استقبال المعزين وخدمتهم. والممارسات التي تستحق الفهم والتحليل هي البكاء الطقوسي أو النواح الذي تختص به النساء. ويصحب هذا

الطقس إلحاق الأذى بالجسد بلطم الحدود وشق الجيوب، النقع أي وضع التراب على الرأس وحلق الشعر... إن البكاء يبدو وكأنه واجب تؤديه النساء نتيجة قرار واع وليس تعبيرا تلقائيا عن الحزن. يحصل الندب بحسب الوضعيات والظروف ويُسهم هذا الأخير في تجيش العواطف وإبكاء الآخرين عبر النطق بعبارات ملحنة ويشترط أن يكون للنواحة صوت حزين، قوي، مؤثر، صوت يصل إلى القلب والوجدان ويؤجج مشاعر الألم العميق. وهذا مقطع من النواحة: "يا بردي يا حي" والذي يتكرر بصورة مثيرة ويعبر عن الحسرة الشديدة. وهناك كذلك مقطع آخر: "وعلاش مشيت وخليتنا وشكون بينا يا بردي يا حي". وتقول نواحة في بكائها امرأة توفيت دون أن تحظى بإنجاب أطفال: "وريني بنتك وريني ولدك نتيينا خالية الدار وريني بنتك وريني ولدك ييكو عليك في نهار ليوم". وتقول أخرى في بكائها رجلا: "كان طويل ومسرار وكلمته تفوت في وسط الرجال، كان كي الرمانة من كل جهة ملانة."

وتستقى "العدادة" معلومات متفرقة من أهل الفقيده وتعيد صياغتها في شكل غنائي مؤثر تذكر فيه صفات للميت حتى إن لم تكن صحيحة، حيث يتم تصويره بصورة أكمل مما هو عليه. وتستعمل النواحة رصيدها الغنائي اللغوي بما يتوافق مع السياق (جنس المتوفى، مستواه الاجتماعي، ظروف وفاته...) والنهي عن البكاء يفصح عن وجود تناقض وطلاق بين الواقع والتشريع الفقهي، ويدل على أن التصورات الجماعية المطمئنة باستحضار النصوص الدينية لم تستطع أن تكبح هذه الممارسات، ما يعني أن البكاء ليس فقط تعبيرا تلقائيا عن مشاعر فردية وأن الباقيات يؤدين دورا طقوسيا مهما.

إن المفاهيم والممارسات المطمئنة والمعلنة في الطقوس الجنائزية في الإسلام تسهم في التقليل من الكتابة الشاهدية أو على الأقل تحد منها. وهنا نعرض بعض الطقوس التي نعتبرها محورية في الطقوس الجنائزية والتي تؤثر على فعل الكتابة ومنها: طقوس التطهير وما يترتب عنها، طقوس الستر وما تستوجبه. وأخيرا، طقوس الجنازة وما تتطلبه من ترتيبات. والدفن يستجيب لمبدأ المفاهيم المطمئنة أو المعلنة، وهو عودة الجسد إلى التراب الذي خلق منه. وهو آخر عملية ستر ومواراة للجثة وقد صارت جنازة. وبالتزامن، هناك طقس آخر وهو صلاة الجنازة التي تختلف

عن الصلوات الأخرى، حيث ليس فيها ركوع وسجود ولا يجهر فيها ولا يعلن عنها بالآذان. وهي تؤدي على أساس النية، ثم التكبير، ثم قراءة الفاتحة، ثم التكبير، ثم الصلاة على النبي (ص)، ثم التكبير، ثم الدعاء للميت، ثم التكبير، ثم الدعاء للحضور، ثم التسليم. وهذا ما جعل بوسكيه "يعتبرها طقساً غريباً". (Bousquet, G.H, 1946, p49) ولعل انعدام الركوع والسجود مرده الخوف من التباس عبادة الله في الصلاة بعبادة الميت. وتأتي هذه الصلاة لتعيد للمجموعة توازنها الذي فقدته بفقدان أحد أفرادها، فهي من الطقوس التي تعيد الانتظام إلى الحياة بعد حلول الخلل أو كما يقول ج. بلاندي: "الموت يعني اللانظام والفضاعة، وطقس الجنازة وسيلة لإعادة النظام وإعادة الأمور إلى حالها [...] إنه يوطد علاقة قوية مع المقدس وعند نهاية الحداد يترتب عنه تطهير وعهد جديد مع الأجداد". وتضيف رجاء بن سلامة (رجاء بن سلامة، د، ت، ص 110) وظيفة أخرى إلى صلاة الجنازة، إذ ترى "أن القصد من الصلاة على الموتى هو ضمهم إلى المجموعة الإسلامية أو التذكير بأنهم منها، فتكون إذا للصلاة وظيفة إدماجية". ومن مظاهر هذا الترابط القوي بين أفراد المجتمع هو ما يظهر جلياً في تلمسان، فعند مرور موكب جنازي يقف الجميع، فالقيام للجنازة نوع من التعظيم والإجلال للنفس البشرية. ولكن القيام سلوك شعائري نجده في الصلاة وهو تعظيم وإجلال لله، فهو وحده الذي يجب أن نخصه بهذا الإجلال.

وقد لاحظ محمد أركون إهمال الإسلاميات الكلاسيكية لهذه الممارسات، وخصوصاً الممارسة أو التعبير الشفهي عند الشعوب التي ليس لها كتابة مثل البربر والأفارقة. وكذلك إهمال المعاش غير المكتوب وغير المقال حتى عند هؤلاء الذين يقدرّون على الكتابة، أي إهمال التفكير بأشياء لا يمكن قولها أو كتابتها، وإهمال المعاش غير المكتوب لكن المحكي. إن الأمر يتعلق عندئذ بمادة غنية يمكن فقط للتحري السوسولوجي الممارس على الأرض أن يلهم بها. كما يرى أركون في كتابه "تاريخية الفكر العربي الإسلامي" "أن الاكتشاف المتدرج للحدثة سوف يجبر العرب والمسلمين في الحقيقة، على التساؤل حول النقاط الثلاثة التالية: المنسي، المتنكر واللامفكر فيه، ضمن ماضيهم الخاص. ويبقى هذا التساؤل الثلاثي الأبعاد ملحا وحاضرا الآن

أكثر من أي وقت مضى لأن المسافة الإستيمولوجية (المعرفية) ما بين الفكر العربي الإسلامي والفكر الغربي تتزايد بنفس معادلة المسافة الاقتصادية التي تفصلهما في هذا القرن العشرين (محمد أركون، 1996، ص56)

خاتمة :

الكتابة الشاهدية ظاهرة اجتماعية وضرورة سوسيولوجية ذات أبعاد ذاكرية وتسجيلية ومن التقاليد الدينية التي حرص التلمساني على استمرارها، فغذاها عبر التنشئة الاجتماعية للأجيال لتصبح موروثاً ثقافياً يصعب الاستغناء عنه بالمجتمع التلمساني الآن بحسب المعاينة الميدانية حيث أن المعلومات المحصّل عليها تكررت وعاودت نفسها عند المبحوثين من خلال التقنيات المنهجية المتنوعة من تصوير فوتوغرافي وتحليل مضامين المقابلات والملاحظة المباشرة، تفيد كلها أن الكتابة الشاهدية ترسخت في أذهان الفاعلين فأصبحت جزءاً من عادات وتقاليد المجتمع التلمساني حيث إلتبس فيها الديني بالديني، وهو نتيجة تكيف تاريخي متبادل بين القيم الدينية والهياكل الاجتماعية والثقافية والمحلية. وهي طقس جنائزي يمكن أن يضاف إلى باقي الطقوس، حيث يتميز بطبيعة ممارسته الخاصة و فاعليه الجدد. حيث تعتبر هذه الكتابة تتويجاً لجملة من الطقوس الجنائزية، كما أنها تحصين للمحلي من فعل النسيان ونوع من أشكال المقاومة الثقافية من جهة وشكل من أشكال التعبير الشعبي من جهة أخرى، فهي حفظ للذاكرة الفردية والجماعية، حيث تعد الكتابة الشاهدية أرشيف "مُهوًى" يحمل معطيات عن الأنساب، الأسماء، التواريخ والأمكنة، إضافة إلى أنها ترصد تمثلات الآخرين اتجاه حدث الموت من خلال الأدعية، الآيات القرآنية، الأشعار والحكم... وتعكس أحيانا أخرى طبيعة الأوضاع في زمن ما، وتحمل في المجلد الكثير من عناصر الثقافة المحلية

قائمة المراجع و المصادر:

- 1- بورديو و ج. فاكونت: أسئلة علم الاجتماع الانعكاسي، ترجمة عبد الجليل الكور، إشراف ومراجعة محمد بدودو، دار توبقال للنشر، 1997.
- 2- بوهاها: طقوس العبور في الاسلام، دراسة في المصادر الفقهية، تقديم عبد المجيد شرفي، مؤسسة الانتشار العربي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان. 2009
- 3- تركي علي ربيعو: الإسلام وملحمة الخلق والأسطورة، المركز الثقافي العربي، ط1، 1992.
- 4- جمال خير الدين: النقوش الكتابية على شواهد القبور الإسلامية مع معجم الألفاظ والوظائف الإسلامية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، 1980 .
- 5- جورج بالاندييه: السلطة والحداثة، ترجمة هاشم صالح، الفكر العربي المعاصر، العدد 41، مركز الإنماء القومي، بيروت. 1984.
- 6- د. برونفسكسي: ارتقاء الإنسان سلسلة عالم المعرفة ترجمة موفق شخاشيرو، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- 7- رجاء بن سلامة: الموت وطقوسه من خلال صحيح البخاري و مسلم، دار الجنوب للنشر، (د.ت) تونس.
- 8- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، مكتبة الحياة، بيروت، ج3.
- 9- زيعور علي: اللاوعي الثقافي ولغة الجسد والتواصل غير اللفظي في الذات العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت 1991.
- 10- شوقي ضيف: الرثاء، الطبعة الرابعة، دار المعارف، (د.ت)
- 11- الصادق عبد الرحمن الغرياني: الفقه المالكي و أدلته، الجزء الأول، مؤسسة الريان للطباعة والنشر.
- 12- صحيح مسلم، كتاب الجنائز 62/3، وسنن الترمذي 208/2، ط2 مكتبة السلفية وصحيح ابن ماجه 473/1، كتاب الجنائز، وكتاب وسنن النسائي 88/87/4 وسنن أبي دواد 3/ 216 باب بناء القبور، ومسند أحمد 3/ 295,332 .
- 13- صوفية السحيري بن حتيرة: الجسد والمجتمع دراسة أنثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد، دار محمد علي للنشر، تونس.
- 14- عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة، 2003.

15-عبد الغني منديب: الدين والمجتمع: دراسة سوسولوجية للتدين بالمغرب، دار إفريقيا الشرق، الطبعة الأولى.

16-محمد أركون: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، ترجمة هاشم صالح، مركز الإنماء القومي، الطبعة الثانية، 1996 .

17-محمد أركون: الفكر الاسلامي، نقد واجتهاد، ت: هاشم صالح، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1993.

18-النسوي: صحيح مسلم بشرح النووي، القاهرة، المطبعة المصرية بالأزهر، 1929-18، 2930ج، م9

المراجع باللغة الفرنسية:

1-Abdessalem (M) : Le thème de la mort dans la poésie Arabe des origines à la fin du 3èmesiècle, Tunis, PUF, 1977.

2-Bousquet, G, H, Les grandes pratiques rituelles de l'islam, Paris, PUF, 1946

3-Cazeneuve. J, Sociologie du rite, Paris, PUF, 1971

4-Durkheim, E: Les formes élémentaires de la vie religieuse, Paris, 1969

5-Fanny Colona, Les versets de l'invincibilité, permanence et changement religieux dans l'Algérie contemporaine, Presse de la Fondation National des Sciences politiques, 1995.

6-Georges Balandier : Société traditionnelle ; In société : « de l'animal à L'homme », L'Harmattan, Paris, 1980.

7-George Balandier : l'anthropologie politique, PUF .Paris ,1978.

8-Gifford Geertz : Observer L'islam : Changement religieux au Maroc et en Indonésie .Paris .Ed la Découverte .1992

9-Khatbi, Abdelkebir: le cors oriental, Ed. Hazan. Paris ,2002.

10- Levinas E : Totalité et infini, essai sur l'extériorité, original édition, Paris, 1971.

11-Max Weber: Economie et Société, Plan, Paris .1971

12-Roger bastide. AnthropologieAppliquée. Payot, 1971

13-Slama, Raja: Les pleureuses, In Intersignes N°2, Printemps, 1991

14-Thomas, L : Idiologie funéraire en Afrique noire, Paris, Payot, 1982.

مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 18 العدد 02 2022/06/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

15-Van Gennep(A) Les rites e passage, étude systématique des rites, Paris, La Haye, Mouton, 1969.

المواقع الإلكترونية:

مناحيم روث: الطقوس الجنائزية، الحداد، ترجمة محمد أسليم، موقع محمد أسليم

www.aslimnet.free.fr

الجرائد:

جريدة الجمهورية: الخميس 08 ديسمبر 2011. العدد 3497.